اللّحيــــــــة

• الأزهر الصحراوي*

تأمّلَ الصورةَ على غلاف مجلة **زهرة الخليج** بلهفة بادية وذهول عجيب. انتفض في مكانه كَمَنْ لسعتْه نحلة. جحظتْ عيناه. قرّب الصورة أكثر، فبدت خمريةَ الفخذيْن واليديْن، صافيةَ الوجه كأنّها النورُ الشفيف، ممشوقةَ القوام. «سبحان الخالق الباري!» همس كمن يحدِّث نفسَه، وأضاف: «لا تَمْلك العينُ إلاّ أن تستملحها، ولا النفسُ إلاّ أن تشتهيها. فسبحان الخالق الباري!»

قَدَّرَ عمرَها بثمانية عشر عامًا، وخَمَّنَ أنّها نجمة صاعدة في كرة التنس (لعلّه اهتدى إلى ذلك من خلال القبّعة والتنّورة القصيرة وكرة التنس التي في يدها). طَوَّقَ المجلّةَ بذراعيْه. ضمّ الصورةَ إلى صدره ولحيته الكثّة حتى انكمش الغلافُ اللّمّاع، وقال مترنِّمًا: «ياغزال البراري، ما يصيدك صيّاد غيري.»

من مكتبه الفخم اتّصل عبر الجوّال بالراعي الأعلى لشؤون اللّحية يَأْمره، بلهجة حادة، بأن يجنِّد فريقًا من الموظّفين لجمع المعلومات الدقيقة عن هذه الحسناء الاستثنائية التي تتصدّر غلافَ المجلة. فطمأنه بأنّ كلّ التفاصيل ستكون جاهزة بعد سويْعات قليلة، وبأنّه سيَحْضر إلى مكتبه خلال ثلاث دقائق. وما إنْ فَتَحَ البابَ حتى بادره قائلاً: «هل يَعْشق رجلٌ صورةَ امرأة دون أن يَعْرفها؟» فأجاب بعد صمت وجيز: «الفقيه المرحوم ابن حزم الأندلسيّ تحدّث عن الوقوع في الحبّ من أول نظرة، وقال يُمْكن أن تحبّ شخصًا من خلال صوته أو مشيته أو صورته...» وأضاف بتملّق ظاهر: «يسوق اللّهُ إلى جنّة الحُبّ مَنْ يشاء، ويُرزق عبدَه الصّالحَ من الجميلات بغيرِ حساب...» فقال وهو يدير كرسيّه: «وأمّا بنعمة ربّك فحدِّثْ. صدق اللّه العظيم.»

استأنف الراعي الأعلى لشؤون اللّحية الحديثَ بعد صمتٍ وجيزٍ، فقال بعد أن حمد اللّه وأَثْنى عليه: «سيدي. جئتُ لأُطْلعكم على بعض التقارير وعقودِ النَّدْب الإضافية. وإنْ تفضّلتم سأتلو على مسامعكم بعضًا منها. يقول البروفسور الإسبانيّ في تقريره الصحيّ لهذا الأسبوع إنّه بعد الملاحظة الدقيقة والكشف العميق تبيّن أنّ بعض شعيرات اللّحية آخذةٌ في التّساقط، وأنّ هناك شعيرات أخرى بطيئة النموّ وخاصة في منطقتي الخدّيْن وأعلى الوجنتيْن. وهذا راجعٌ إلى خلل طارئ على هرمونات الذكورة في الدم، ما أدّى إلى تدمير خلايا حويْصلات شعر اللّحية.»

سأله منزعجًا كمن لم يفقه شيئًا: «إيش يعني هذا؟» فردّ بكياسة وهو يُدْخل إصبعه في أحد منخريه: «التّقرير يُثْلج الصّدر، غير أنّ الاحتياط واجب. وقد تهيّأنا، سيّدي، لكلّ الاحتمالات السيِّئة، لا سمح اللّه. وإنْ رغبتم أَطْلعتُ حضرتكم على كلّ الإجراءات المتّخذة لحماية لحيتِكم الموقّرة، أطالها اللّه وأبقاها.» فقال بانزعاج واضح: «هاتِ من الآخر، هات.»

قال الرّاعي الأول لشؤون اللّحية: «بعد إذْنِ سيادتكم، أَرْسلْنا خبيرًا مختصًا في البخور والعطور إلى كمبوديا منذ يوم لجلب كميةٍ تفي بحاجة اللّحية لمدّة سنة واحدة. وأَرْسلنا آخرَ إلى اليمن لجلب العود والدّاد، وهما من الأبخرة التي تحتاجها كلُّ لحية محترمة. ثم أوفدنا ثالثًا إلى الهند لجلب عطر الورد والزّهر، ورابعًا إلى تونس لجلب الحنّاء القابسية.» علّق مبتسمًا وعيناه إلى الأرض: «اللّه يعطيكم العافية. واللّهِ ما قَصَّرتم.» تابع الراعي الأول يقول: «صرفْنا سيدي، بعد إذنكم طبعًا، بعضَ الموظّفين القدامى. ونَدَبْنا أخصّائيةً في الحلاقة والتّجميل من لبنان، وهي ذات خبرة وكفاءة عالية وحسن بديع، وجعلنا لها راتبًا شهريًا مقدارُه ألفُ دولار أميركيّ.» فقاطعه قائلاً بنبرة حادّة: «راتبها قليل. قليل جدًا يا أخي! ضاعفوه واجعلوا مأكلها وملبسها ومسكنها مجانًا.» فابتسم الراعي الأوّل لشؤون اللّحية وقال وهو يخطّ بقلمه: «أمركم نافذ سيدي.» ثم واصل سرد التفاصيل: «ومهمّتُها مراقبةُ أحوال لحيتكم الموقّرة يوميًا لمدّة ساعة واحدة. ثم تعاقدنا، سيدي، مع طبيب أميركيّ، وهو عضوُ الأكاديمية العالمية للأطباء ومختصّ في الأمراض الجلدية، وجعلنا له راتبًا شهريًا قدرُه خمسة آلاف دولار أميركيّ.» فقاطعه بهدوء واضح: «أضيفوا إليه الهدايا في الأعياد والمناسبات.» واصل يقول: «ومهمّتُه، سيدي، فحصُ جلد الوجه والرأس وما يغطّي هذه الأجزاء من شعر لمدّة نصف ساعة في اليوم. ونَدَبْنا، سيدي، خبيرًا فرنسيًا بارعًا جدًا في فنّ الصباغة وإعداد المستحضرات الكيميائية براتب شهريّ قدرُه ألفا دولار أميركيّ، ومهمّتُه مراقبة لون شعر اللّحية يوميًا، ويتولّى صبغَها كلَّ نصف شهر ويغيِّر لونَها في كلّ فصل من فصول السنة بما

---

* ـ قاصّ من تونس، مقيم في الكويت.

يناسب الذَّوقَ العامّ. وأخيرًا، سيدي، نَدَبْنا مترجمًا مغربيًا يجيد خمسَ لغات مقابل ألف دولار أميركيّ في الشهر، وهو يتلقّى التقارير اليومية الخاصة باللّحية فيترجمها على الفور ويناقش أصحابَ التقارير في دقّة تشخيصهم...»

رفع الرّاعي الأوّل لشؤون اللّحية نظرَه باتّجاهه، فوجده نائمًا على كرسيّه الوثير الدوّار، وعيناه مغمضتان، وهو يرسل غطيطًا خفيفًا. لم يتسنّ للراعي أن يَنْظر يومًا إلى لحيته، وأن يُشْبع فضولَه من ملامحه وتفاصيل وجهه الخمسينيّ، فتفرّس في لحيته السوداء الكثّة التي تغطّي رقبته الطويلة وتنتشر نزولاً فتحجب صدرَه العريض، وقد خمّن أنّها تلامس سرّته وقد تصل إلى شعر عانته. ردّد هامسًا، دون أن يَشْعر، قولتَه المأثورةَ التي حفظها الساهرون على شؤون اللّحية عن ظهر قلب: «سبحان الذي أكْرم الرجال باللّحى وفَضّلهم بها على النّساء وأشباه النّساء...»

أفاق إثر هذا الهمس من غفوته مضطربًا. استوى قليلاً في جلسته، ومسح بيديه على لحيته وتثاءب، فتردّدتْ أصداءُ عوائه في المكتب، وسأله دون أن ينظر إليه: «كم الساعةُ الحين؟ هل من أخبار عن لاعبة التنس؟» فأجاب متلعثمًا: «أخبار تسرّ إنْ شاء اللّه. حركاتها وسكناتها وجزئيات حياتها تُسجَّل الآن، وسنرفع إليكم التفاصيل الدقيقة لاحقًا. أمّا الآن، سيدي، وبعد إذنكم طبعًا، فقد حانت فترةُ المشي. فرئيس الأطباء نبّهَ في تقريره الأسبوعيّ إلى زيادة وزنكم بثمانية أرطال، والفريق المساعد على المشي ينتظر حضرتكم في الخارج.»

وقف بتكاسل واضح، فاندلق بطنُه أمامه. مشى خطوتيْن باتّجاه الخارج. تراجع الراعي الأعلى لشؤون اللّحية إلى الوراء بعد أن فتح البابَ على مصراعيه ليستلّ جزءًا من الدشداشة البيضاء التي استقرّت بين الردفيْن المكتنزيْن حرصًا على هيبة حضرته. وما كاد يتخطّى عتبةَ باب المكتب حتى وجد فتاتين تايلنديتيْن جميلتيْن، الأولى على اليمين والثانية على اليسار، وبيديهما منشتان قُدّتا من ريش الطواويس لمنع أيّ دبابة أو خنفساء أو حشرة من حشرات الأرض الدابة أو الطائرة من الاقتراب من اللحية أو ملامستها أو الولوج داخلها، وعلى كتف كلّ واحدة منهما مرشّ صغير فيه مبيدٌ حشريٌّ فتّاك يُستخدم في الحالات الطّارئة. وعلى بعد أمتار من الموكب الصغير فريقان: الأول يرشّ المبيدات الحشرية، والثاني وراءه يبخّ العطور الفوّاحة في الهواء. وثمة فريق ثالث له مهمّةٌ استطلاعيةٌ، سَبَقَ الجميع بخمسين مترًا، وتسلّح بأجهزة الاتصال الحديثة وأجهزة الرؤية الليلية الدقيقة المخترِقة للضّباب والرّطوبةِ والظّلمةِ من أجل التنبيه إلى حركة بعض الحشرات المارقة أو الهاربة وأخذِ الإجراءات اللاّزمة.

قبل أن ينهي حصّة المشي تهاطلت التقاريرُ تقول إنّ والدها خبيرٌ مصريّ في شؤون النّفط، وإنّ أمّها أوكرانية عادت إلى بلدها بعد الطّلاق، وأما هي فلاعبة تنس وطالبة جامعية في اختصاص التربية البدنية. ما إنْ بلغته الأخبارُ حتى حمد اللّه وأثنى عليه، وبجرأة تصلّ حدَّ التهوُّر اقتحم بيتَ والدها المتواضع. لم يَخْلُ مواقفُ والد لاعبة التنس من دهشة: فقد فتح الباب ثم أغلقه ثم أعاد فتحه من جديد ونظرُه على صاحب اللّحية، الذي حسم الموقفَ فجعل يتقدّم نحوه بخطى بطيئة، وبادره قائلاً: «السّلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته. خاطِبٌ راغبٌ في بنت الحسب والنّسب.» قال الأب ورأسُه إلى الأرض: «الأصول أصول. تفضّلوا. البيت بيتكم. يا أهلاً وسهلاً.» عندها أمر الحمّالين بإدخال الهدايا، فدخلوا بنظام عجيب. رصفوها في بهو البيت، ثم انسحبوا إلى الخارج.

نادى الأب ابنته، فجاءت وسلّمتْ وجلستْ، فأخبرها بالأمر المفاجئ ودعاها إلى اتّخاذ قرارها الخاصّ. وما كاد الأب يتمّ حديثه حتى جعل يقدّم عروضه المغرية: «سأصنع شهرتكِ وأجلب لك أحسن المدربين، وأجعل أشهرَ قنوات الدعاية والإعلام تقبّل حذاءكِ، وسأنشئ لك ملعبًا خاصًا يحمل اسمك.» تكلّمت الفتاة قائلةً بهدوء لافت للانتباه: «يا عمي أنا مهري غال!» ابتسم الأب لردّ ابنته، وصاح الضيفُ قائلاً بعناد ظاهر: «واللّهِ ما يِغْلى عليك شيء. طلباتك أوامر، بإذن اللّه تعالى. فإنْ أردتِ أن أطلّق زوجاتي الثلاث فعلتُ، وإنْ أردتِ شركتي النفطية بأميركا جعلتُها باسمك. وإنْ أردتِ سلسلةَ نَزْلي بإسبانيا جعلتُك شريكةً لي فيها. وإنْ أردت مزارعي في...»

قاطعتْه مردِّدةً قولَها السابق ومحافظةً على اللّهجة الهادئة نفسها: «مهري غالٍ يا سيدي، وأنت لا تَقْدر على تحقيقه.» ازداد والدها حيرةً. حكّ رأسَه وكأنّه خاف أن تَضْعف أمام عروضه فَتَقْبلَ به، أو أن تتغابى فترفض. استأنف حديثَه بنبرة حازمة ومتحدّية، ويدُه تداعب لحيته السّوداء

الكثة: «واللّهِ ثم واللّهِ ثم واللّهِ، يا مليحة الملاح، إنّ كلّ ما تَنْطق به شفتاك ستحوزه يداك بإذنه تعالى وعونه.» فردّت بنبرة جافة: «مهري لحيتُك!» انتفض واقفًا ويدُه عى لحيته وكأنّه يحميها من هجوم متوقّع، وقال كمن يخاطب نفسه: «لحيتي؟! ليست في الحساب لحيتي! ما لها لحيتي! لحيتي مَهْر؟!»

كان نظرُ الأب موزَّعًا بين الضّيف وابنته. وكي يضع حدًا للإحراج قال بلطف مُتصنّع: «أَمْهِلْنا يومًا لنفكّر في الموضوع، وإنْ شاء اللّه لن يَحْصل إلاّ الخير.»

...

خرج من عندها مهمومًا، وبات ليله مفكّرًا، ونام صبيحة اليوم الموالي في مكتبه لأول مرة في حياته. فور استفاقته أَرْسل إليها الراعي الأعلى لشؤون اللّحية ليُعْلمها بموافقته، فأجابته باسمة: «خيرُ البِرّ عاجله. قل له جُزَّ لحيتَكَ وهاتِها على طبق، واحذرْ أن تضيع منها شعرة واحدة، وهاتِ ما يَلْزم لإبرام عقد الزواج.»

لما سَرَدَ الراعي الأعلى كلامَها على مسامعه بلهجة حزينة منكسرة وعيونٍ دامعة لم يرجئ الأمرَ إلى صبيحة اليوم الموالي، بل استدعى حلاّقته اللبنانية على جناح السرعة، فهيّأتْ لحيته بعد أن رسمتْ علامةَ الصليب، وشرعتْ في الجزّ بمهارة وحِرَفية عاليتيْن. في هذه الأثناء انتشر الخبرُ الأليم بين الموظفين، فتسابقوا إلى المكان، وعلا نحيبُهم في الخارج، ورَفَعَ المترجمُ المغربيُّ صوتَه نائحًا عندما خرج الخادمُ حاملاً بيديه طبقًا فضيًا وعليه اللحيةُ، وفوقها لحافٌ حريريٌّ شفّاف، وكان متّجهًا إلى سيارة «الشبح.» فتدافع الموظفون وأَمْسكوا بالطبق من كلّ الجهات، ومشوا بصمت رهيب في شكلِ قدّاسٍ جنائزيّ إلى حيث السيارة. وحين خرج ليَرْكَب السيارة كان وجهه المائل إلى الزرقاء الغامقة أقبحَ من اسفلت الطرق المعبّدة، ولعلّ هذا ما أجمع عليه الموظّفون وهم يغادرون المكان.

...

لم يكن عقدُ القران حفلاً بسيطًا بل صفقة استثنائية، وقد تمّ في صمت وسرعة وجيزة، ولم تنطق الفتاةُ إلاّ لمّا سألها المأذون عن مُؤخّر الصّداق. وقبل أن تتكلّم رفع صوتَه قائلاً بعد أن وقف بخفّة: «لها نصفُ فندق قرطبة بإسبانيا، ولها شقة فاخرة في لندن، ولها خمسون ألف دولار أميركيّ، ولها يخت هولنديّ، وسيارتان فاخرتان لها حريّةُ تحديد نوعيهما.» بعد أن دوّن المأذون ذلك أسفلَ الصداق قالت بلهجة رصينة واثقة: «شَرْطي بسيط ووحيد سيّدي: ألاّ يرسل لحيتَه ثانيةً، وإنْ فَعَلَ حقّ لي خلعُه في الحال.» لم يَمْلك إلاّ أن أومأ برأسه علامةً على قبوله. بعد عقد القران مباشرةً طلبتْ إلى والدها أن يصنع لها من تلك اللحية الكثة ما يشبه المنشة، فأخذها إلى محل التنجيد حيث شُدّت الشُّعيْراتُ بفنّ وإحكام إلى عصا قصيرة من الخيزران الأملس. لم يَلْحظ والدُها طيلة الأعوام الماضية أنّها فرحتْ بشيءٍ ما كفرحها اليوم بهذه المنفضة الجديدة، فراح يسألها أسئلةً متلاحقةً عن سرّ فرحها وعن غرابة تصرُّفها وعبثها بمشاعر الرّجل، فتعمّدتْ تجاهل أسئلته.

في أيام زواجه الأولى تخلّى من تلقاء نفسه عن ملابسه المحلية التقليدية، فلبس الجينز الخفيف، وانتعل أحدَ أحذية «أديداس» الرياضية، وحَلَقَ شعرَ رأسه على شاكلة الملاكم تايسون. وبجرأته المعهودة أعلنَ تسريحَ كلّ الموظّفين والعمّال الذين كانوا ساهرين على خدمة لحيته المُوقّرة، بعد أنْ صرف لهم منحة نهايةِ الخدمة ومنحةَ الحرمان. أَذْهلها تطوُّرُه التلقائيّ فعمدتْ في تلك الأيّام الأولى إلى استفزازه كي تقيس حجم تبدُّله، فلاحظتْ أنّه انتفض أوّل مرّةٍ لما رآها تزيل بتلك المنفضة المصنوعة من شعر لحيته ما عَلِقَ بأحذيتها الرياضية القديمة من غبار. ثم أَضْحى لا يبالي إنْ رآها تزيل بها الأغبرةَ العالقةَ بالميداليات والكؤوس الفضية والنحاسية التي فازت بها.

الكويت